المصاهرات بين العراق وافريقية التونسية

زخرت القيروان – فى مستهلّ القرن الثاني للهجرة – بالسكان ، ولم تكن رقعتها تضم أهلها الأصلاء وحدهم ، وإنما تفسح صدرها للواردين عليها من مختلف الأمصار الإسلامية ، فكانت بيئتها الاجتماعية تحتوي على عناصر أشتات ، من عرب وأفارقة وبربر وإفرنج ، وقد أشار إلى ذلك الرحالة « اليعقوبي » حيث قال [1] : « وفى مدينة (القيروان) أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب ، من مضر وربيعة وقحطان ، وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك ... » .

ومن بين قُطّان القيروان : الأجنادُ وأبناء الأجناد الوافدون من شمال جزيرة العرب ، ومن اليمن والشام ومصر ، وكذلك العمال والأعوان الذين تبعث بهم الخلافة الأموية لكي يسند اليهم الولاة مرافق إدارة البلاد ، وكذلك أهل التجارة الذين يزاولون عرض بضائعهم المجلوبة من أطراف المشرق والمغرب .

وفى من ضمت القيروان طائفة أخرى غير هؤلاء وهؤلاء ، طائفة العلية والسراة من أهل البيوتات العربية العريقة الأنساب ، ساقتهم مطامحهم السياسية إلى إفريقية ، لكي يكونوا بمنأى عن مقر الخلافة ، وبمنجاة من سلطان بني أمية ، أو كانت هجرتهم لغير ذلك السبب من الدواعي والمرغبات ، فوجدت الجالية العربية الفتية فى مقدمتهم تعزيزاً لها وتقوية على الأيام ...

فمن أعيان الوافدين : (منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري) من ذرية « ذي رعين » أحد ملوك اليمن قبل الإسلام .

طرأ منصور على القيروان نحو سنة ١١٠ هـ ، واتخذها له وطناً ، وابتنى بها داراً حسنة فى الحي المنسوب إلى « بني نافذ » غير بعيد من المسجد الجامع ، وقد صاهره البشير بن خالد صاحب

---

(١) كتاب « البلدان » لليعقوبي – وقد زار المغرب في حدود سنة ٢٨٥ هـ – طبع النجف ص ١٠٦ .

الشرطة بإفريقية ، إذ تزوج أخته ، فزاد ذلك من مكانته فى الجالية العربية .

قال ابن الأبار [١] ـ ناقلاً عن ابن الوكيل القيرواني ـ : « كان منصور شريفاً فى قومه ، معروف المكانة فيهم ، مذكوراً بالبلاغة والشعر وكرم الأخلاق .

وبعد حين من مقدمه ، ورد عليه شاب قرشي من البصرة ، يعرف آل بيته فى المشرق ، وهو : أبو جعفر عبد الله العباسي ، فأكرم منصور مثواه ، وأنزله على الرحب والسعة .

ويجمل بنا هنا أن نسوق نبذة من خبر أبي جعفر ، وما كان له من الصلة الوثيقة بإفريقية التونسية قبل أن يلي الخلافة وبعد أن وليها ، وهو : عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وأمه « سلامة » بنت بشير ، جارية بربرية من قبيلة نفزة التونسية ، تزوجها أبوه محمد ، فولدت له أبا جعفر سنة خمس وتسعين للهجرة بمدينة البصرة ، فنشأ بها ، وقرأ على أعلامها ، ومن رفقته فى مدارسة العلم زمنَ الصغر : عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي [٢] .

حكى عبد الرحمن عن نفسه ، قال : « كنت أطلب العلم مع أبي جعفر المنصور ، قبل أن يلي الخلافة ، فأدخلني يوماً منزله فى الكوفة ، فقدم طعاماً ومريقة من حبوب ليس فيها لحم ، ثم قدم زبيباً ، وقال : يا جارية ، عندك حلوى ؟ قالت : لا ، قال : ولا تمر ؟ قالت : ولا تمر ، فاستلقى ، ثم قرأ هذه الآية : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون) » .

ولما كبر أبو جعفر وترعرع ، اقتفى خُطا أخويه الكبيرين : إبراهيم المعروف بالإمام ، وأبي العباس الذي اشتهر فيما بعد بالسفّاح ، فجرى مجراهما فى دعوى استحقاق الخلافة ، فأذكت الدولة الأموية العيونَ عليه ، وأوعزت إلى العمال والأعوان أن يتتبعوه ، وأن يتعرفوا ما يكون منه ، وأن يقبضوا عليه إذا لزم الأمر ، فكان هو وأهل بيته يتخفون ما استطاعوا ، ويسرون دعوتهم بكل سبيل ، ويلوذ منهم لائذون بالبقاع القاصية مثل خراسان ببلاد فارس وصنعاء باليمن .

---

(١) كتاب الحلة السيراء (ص ٣٥١) .

(٢) راجع ترجمته في « خلاصة تاريخ تونس » (ص ٥٩) ، من تأليفنا .

وما عتم أبو جعفر أن توخى إفريقيةَ لما بينه وبينها من رحيم واشجة ، فإن ابن عمه حفيد عبيد الله بن عبد الله بن العباس كان قد طرأ على القيروان وتزوج فتاة تسمى « أروى » وتكنى « أم موسى » ، وهي ابنة منصور بن يزيد الحميري ، فأولدها بنتاً ، ومات نحو سنة عشرين ومئة للهجرة ، فبقيت « أروى » في بيت أبيها ، وتقلبت بها الأيام ، حتى كان مقدم أبي جعفر يستلحق ابنة ابن عمه في ظاهر الأمر ، على حين أن حقيقة الغرض من مقدمه هي التماسه سبيل النجاء من طلب بني أمية له .

حل أبو جعفر ضيفاً عزيزاً على منصور بن يزيد الحميري ، وفي أثناء مقامه عنده شهد من وسامة « أمّ موسى » ما بهر بصره ، وخلب لبه ، فخطبها إلى أبيها ، وتزوجها ، وتعلق بها أكبر التعلق طولَ حياته . وقد اشترط لها أبوها في عقد زواجها ألا يتزوج أبو جعفر غيرها ، وألا يتخذ السراري معها ، فإنْ تسرّى عليها كان طلاقها بيدها ، كما جرت بذلك عادة أهل القيروان من عهد قديم ، حتى سميت تلك الطريقة بالصداق القيرواني [1] .

مكث أبو جعفر في كنف منصور بن يزيد الحميري والد زوجه « أروى » ، حتى كتب الخليفة هشام بن عبد الملك الى عامله على إفريقية يطلب منه القبض على أبي جعفر ، فلما أحس الخبر اضطر أن يستخفي في بيت ختنه بشير بن خالد ، وهو قصر يقوم في وسط ضيعة خارج القيروان على طريق سوسة ، وربما كان في موضع (ذراع التمار) الآن .

وبعدَ حينٍ أزمع أبو جعفر عوداً الى المشرق ، ليلحق بإخوته وآل بيته ، وكانت أنباء دعوتهم تتناهى اليه في القيروان ، فانحدر بزوجه « أروى » مختفياً الى الكوفة ، وظل يتردد على منازل الأشياع من الهاشميين في سرٍّ حتى ظفرت الدعوة العباسية بمناصرة أبي مسلم الخراساني ، وسقطت دولة بني أمية ، وآلت الخلافة الى عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ وكان الأخ الأكبر لأبي جعفر ، فلما مات وسدت اليه الخلافة سنة ١٣٦ هـ ، وفي بادئة أمره أنشأ مدينة بغداد التي سميت أولَ ما سميت : « مدينة المنصور » ، وابتنى لنفسه قصراً أسماه « قصر الخلد » ، وأسكن فيه زوجه وبنيه وذويه .

(١) راجع ما كتبناه في هذا المعنى في كتابنا (شهيرات التونسيات) ص ١٥ من طبع تونس .

وقد وفى المنصور لزوجه « أم موسى » ما كان عاهدها عليه فى عقدة الزواج ، فلم يتخذ له زوجاً سواها ، ولم تكن له سراري معها طولَ حياتها ، وقد ولد له منها جعفر أكبر أولاده ، ومات فى حياة أبيه ، وولد له منها كذلك ابنة هي « الزبيدة » التي تزوجها هارون الرشيد فيما بعد ، وابن ثان هو « محمد المهدي » الذي صارت اليه الخلافة .

ولم تزل « أروى أم موسى » فى المحل الأرفع من قلب زوجها ومن إجلاله وتكريمه ، يرعى أولادها ، ويحتفي بأهل بيتها ، حتى توفيت سنة ١٤٦ هـ بعد عشر سنين من ولايته إمارة المؤمنين .

حزن المنصور على زوجه الحميرية الإفريقية حزناً ألماً ، اذ كان يحمد لها ما تمتاز به من جليل الخصال ، ويذكر لها مشاركتها اياه فى البأساء والنعماء ، ويفاخر بأنها سلالة ملوك اليمن من حِمْيَر ذروة مجد العرب الأثيل .

وقد عرفت « أم موسى » فيما بعد بأنها « أمّ الخلائف » ، إذ أن خلفاء بني العباس ـ من بعد المنصور ـ كانوا من ذريتها الماجدة ، نازعين الى تلك الأعراق البالغة من النبالة أقصى المبالغ .

ومن قول الشاعر الكبير سلم بن عمرو المعروف بالخاسر فى مدح الخليفة المهدي [1] :

أكرمْ بقرمٍ أمينُ الله والدُهُ ... وأمُّه أمُّ موسى بنت منصور

ومن قول الشاعر المعروف أبي نُواس فى الخليفة محمد الأمين بن الرشيد وزبيدة :

وما مثل منصورَيْك : منصورِ هاشمٍ ، ... ومنصورِ قحطانٍ اذا عُدَّ مَفْخَرُ

فمن ذا الذي يرمي بسهمَيْك فى الورى ... وعبدُ مَنافٍ والداك وحِمْيَرُ ؟

ومن قول أبي نواس أيضاً :

فجَدّاك هٰذا خيرُ قحطانَ واحداً ... وهٰذا اذا ما عُدَّ خير نِزارِ

يعني بالقحطاني منصوراً الحميريَّ ، وبالنِّزاري أبا جعفرٍ المنصور .

ونقتصر على هذه الأبيات فى الاشارة الى رفعة نسب منصور الحميري واتصاله ببني العباس ، والمأثور من أمثالها كثير لا يتسع لإيراده المقام .

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢/١٢) .

عاش أبو جعفر المنصور بعد وفاة زوجه ، فى عزه وصوله ، حتى تُوُفِّيَ سنة ١٥٨ هـ وهو فى طريقه الى الحج ، ودفن فى مكة ، وخلفه على الأمر ابنه الأكبر محمد المهدي .

وقد اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه لم يكن في خلفاء بني العباس أعلم من أبي جعفر المنصور وحفيده عبد الله المأمون ، ودونهما فى المعرفة هارون الرشيد والواثق بالله ، والمنصور معدود فى الملوك الشعراء .

وقد أورد له الأخباريون وصيته الخالدة الى ابنه وخليفتـه المهدي [1] ، ومن قوله في بعض مواقفه الحربية ، وقد التفّتْ عليه جموع من الأعداء :

وجعلت نفسي للرماح دَرِيئَةً ... إنّ الرئيسَ لمثلِ ذاكَ فَعُولُ

وقوله مجيباً من نصح له بالأناة فى أمر أبي مُسلم الخراساني :

اذا كنتَ ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإنّ فسادَ الرأي أن تترددا

ولا تمهل الأعداء يوماً بقدرة ... وبادِرْهُمُ أن يملكوا مثلها غدا

وقوله أيضاً :

تقسمني أمرانِ لم أفتتحهما ... بحزم ، ولم تمرك قواي الكراكر

وما ساور الأحشاء مثل دفينة ... من الهمّ ردتها عليك المصادر

وقـد علمت أبناء عدنانَ أنني ... لدى ما عرا مقدامة متجاسر

وله فى غير ذلك من الشعر الحماسيّ ، نظمه فى أثناء ولايته وقبل أن يتولى .

عُني المنصور عناية خاصة بالبلاد الإفريقية وبأهلها منذ قبض على زمام الخلافة ، إذ كان يعلم من حقيقة أمرها ما بصّره به العيان ، فقد سكنها وأقام بها زماناً ، وعرف خباياها ، وخبر رجالها ، فلا غرو اذن أن يصطفي لإمارتها كبار قوّاد دولته ، مثل : محمد بن الأشعث الخزاعي ، والأغلب بن سالم التميمي ، ويزيد بن حاتم المهلبي ، وأخيه روح بن حاتم ، وما منهم إلا من قاد الجيوش فى الفتوح ، وتوسد جلائل الأعمال فى تلك الدولة الفتية الناهضة .

---

(١) الحلة السيراء (ص ٣٥٣) . (٢) الكامل لابن الأثير (٦/٩) .

ويروى عن المنصور أنه كان يسأل من يفد عليه ببغداد من أهل إفريقية : كيف حال إحدى القيروانين ؟ يعني بذلك مدينة تونس ، إذ أقام بها فترة من الزمن .

* * *

والآن وقد قصصنا عليك ما كان من صلة أبي جعفر المنصور بالقيروان ، قبل الخلافة وبعدها ، نلمع الى ما كان من صلة ذرية العباس بن عبد المطلب ـ عم النبي صلى الله عليه وسلم ـ بإفريقية التونسية ، وما لهم من قدم صدق في فتحها .

شارك عبد الله بن عباس ـ حبر هذه الأمة ـ في أول غزوة لإفريقية ، مع عبد الله بن أبي سَرْح سنة ٢٧ هـ ، وهو الذي قسّم الغنائم بين القواد والأجناد في وقعة « سبيطلة » .

والغزو الثاني لإفريقية باشره شقيقا عبد الله بن عباس ، وهما : معبد وعبد الرحمن سنة ٣٥ هـ مع معاوية بن حديج ، وقد استشهدا جميعاً ، رضي الله عنهما ، في فتحها ، ودُفنا في تربتها ، وتبرك أديمها باشتماله على رفاتهما الطاهر[1] . وثلاثتهم أبناء العباس عمّ الرسول ، عليهم صلوات من ربهم ورحمة .

وقد أسلفنا لك من نبأ منصور بن يزيد الحميري أنه اتخذ بالقيروان داراً فسيحة لأهل بيته ومواليه ، ويبدو أنه كان واسع الثراء ، يتخذ الحاشية والأتباع . فمن مواليه (حفص) الذي تولى من بعـــدُ خراج إفريقية ، يدبر أموال البلاد ، وابتنى لنفسه قصراً اشتهر باسمه (قصر حفص) ، وذلك في العاصمة ، وقد ورد ذكر هذا القصر كثيراً في تراجم الأفارقة .

كان لمنصور الحميري عدة أولاد في القيروان ، من أشهرهم :

يزيد بن منصور الذي التحق بابن أخته محمد المهدي لما آلت اليه الخلافة سنة ١٥٨ هـ ، فقربه المهدي منه ، واستعان به في المهمات ، وأسند اليه المناصب ، مثل ولاية خراسان والكوفة واليمن ، وامارة موسم الحج ، وقد لمع اسم يزيد حتى مدحه علية الشعراء ، كأبي نواس ، وتوفي

(١) لنا بحث مطول ـ في غير هذا ـ عمن استشهد من الصحابة في التراب التونسي ، وقد بسطنا فيه من الكلام عن تأريخ أبناء سيدنا العباس ، فليراجع هناك .

يزيد سنة ١٦٥ هـ[١] .

ومما يحسن التنبيه اليه في هـذا الصدد أن أبا محمد يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي الطائر الصيت ، صاحب أبي عمرو بن العلاء وأحد كبار القراء ، إنما قيل له اليزيدي لأنه كان يؤدب ولد يزيد بن منصور هذا ، فنسب اليه ، ثم إنه أدب بعد ذلك الخليفة المأمون[٢] .

* * *

ومن غريب الموافقات أنه لا تكاد تمر مئة عام على الأحداث التي قدمناها حتى يقدم على إفريقية أمير عباسي في بواكير الصبا ، من حفدة أم الخلائف أروى الحميرية القيروانية ، وذلك في نحو سنة ٢٧٠ هـ .

ذلك الشاب هو (عبد الوهاب ابن الخليفة المهتدي ابن الخليفة الواثق) ، وقد خرج من بغداد بعد مقتل أبيه بأعوام ، فوصل الى القيروان في مدة الأمير ابراهيم الثاني من « بني الأغلب » ، فأحسن الأمير لقاءه ، وأنزله بجوار قصره (الفتح) في أحد المتنزهات البديعية التي أنشأها في مدينة « رقادة » .

ورغب الأمير الشاب في الإصهار الى الأسرة الأغلبية ، فزوجه ابراهيم الثاني ابن أخيه المتوفى الأمير محمد الثاني الملقب بأبي الغرانيق ، وتوالت ولائم العرس أياماً ولياليَ في رقادة[٣] ، وكان المتولي لعقد الزواج هو القاضي الطائر الصيت عبد الله بن طالب التميمي صِنو الأغالبة .

سكن عبد الوهاب وعروسه في قصر لطيف ، تحف به حديقة غناء ذات أفنان وزهر وريحان ، وولد لهما (محمد) و (حسين) ، فنشأ كلاهما في رعاية عم والدتهما حتى أهّلهما بالتربية لشغل المناصب الرفيعة في الدواوين ، وبينما كانا في صباهما فارقهما أبوهما عبد الوهاب عائداً الى العراق و« مَن رأى » ، فظل الأميران الصغيران مع أمهما الى أن توفاها الله في نحو سنة ١٨٥ هـ .

وطرقت إفريقية طوارق الحدثان ، وتجمعت البوادر المؤذنة بسقوط دولة بني الأغلب التميمية ، وقيام الدولة العبيدية الفاطمية مكانها ، فاستكف الأميران العباسيان أن يقيما بإفريقية ،

(١) الكامل لابن الأثير (٦/٢٨) . (٢) الحلة (ص ٣٥٣) .
(٣) جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١٨ و ٢٣) .

والتحق أكبرها (أبو اسحاق محمد) بالأندلس قاصدا خليفتها عبد الرحمن الناصر ، فاحتفى بمقدمه عليه فى قرطبة ، وأجرى له رزقاً معلوماً فى كل سنة ، ومات أبو اسحاق محمد فى خلال سنة ٣٣٣ هـ ولم يعقب .

أما أصغر الأخوين (الحسين بن عبد الوهاب) ، فانه ما كاد يشهد أفول نجم بني الأغلب حتى رحل الى جزيرة صقلية ، وأقام بعاصمتها (بلرم) الى أن وافاه الأجل المحتوم ، فدفن هناك ، ولا ندري أأعقب أم لا .

ومما مر بنا مجملا فى هذه العجالة ، يتبين لنا أن الجالية العربية النازحة الى إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث ، كانت تعد بينها وجوها من أبناء البيوتات المشهورين بفصاحة الألسن وسعة الآداب ووفور الأحساب وأصالة الأنساب . وفى ذلك بلاغ !

تونس : ح . ح . عبد الوهاب الصمادحي